ضِدُّ الوَاقِعِيَّةِ العِلْمِيَّة

دراسة نقدية لأشهر حجج العلمويّة وركيزتها :

الواقعيّة العلميّة

ضِدُّ الوَاقِعِيَّةِ العِلْمِيَّة

دراسة نقدية لأشهر حجج العلموية وركيزتها:
الواقعيّة العلميّة

تأليف
م. عنبر بن وليد الحلبية
عبد القادر سبسبي

تبصير
للنشر والتوزيع
للدراسات والأبحاث العلمية والترجمة

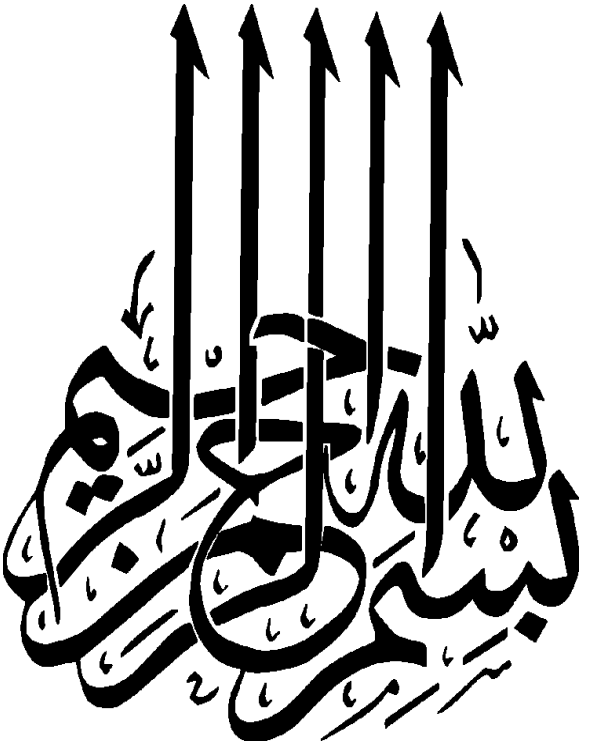

ضد الواقعية العلمية

دراسة نقديّة لأشهر حجج العَلمويّة وركيزتها: الواقعيّة العلميّة

هذه دراسة نقديّة في **الواقعية العلميّة** بوصفها الركيزةُ الأشدُّ رسوخًا في الخطاب **العَلموي**: فهي التي تُحوِّل نجاح العلم من قدرةٍ على التنبؤ والضبط إلى دعوى أعمق تقول إن نظرياتنا تصف ما وراء المشاهدة (الغيب) كما هو في نفسه، وإن أفضل تفسير لنجاحها أنها صادقة مطابقة للواقع – أو قريبة من الصدق.

اتخذتُ كتاب **Resisting Scientific Realism** لـ **كينيث براد راي (Kenneth Brad Wray)** محورًا؛ لأنه يجمع بين جانبين مهمين: يفكك حجج الواقعيين، وفي مقدمتها **حجة عدم المعجزات** و**الاستدلال الموصل إلى أفضل تفسير**، ثم يختبرها على تاريخ العلم حيث تظهر تحولاتٌ قلبت مفاهيم وكياناتٍ كانت يومًا «الأفضل» دون أن يتوقف العلم عن النجاح والعمل.

بين التحليل المنطقي والشاهد التاريخي – من الثورة الكوبرنيكية إلى التحول في الكيمياء من الوزن الذري إلى العدد الذري – ترسم الدراسة حدًّا أوضح بين المشاهد وغير المشاهد من جهة القيمة المعرفية، لتثير أسئلةً مهمةً من جديد، ما الذي يمنحه النجاح العملي للعلم لنا معرفيًا؟، وما الذي لا يبيح لنا نجاحه أن نعتقده أنطولوجيًا؟، هل هو قادر على مزاحمة العقائد الغيبية الدينية بوصفه منهجًا حاسمًا؟

م. غيث بن وليد الحلبية **عبد القادر سبسبي**

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أمّا بعد:

من الظواهر التي تسلّلت إلى خطابنا المعاصر - في العالم الإسلامي عمومًا والعربي خصوصًا - نزعةُ العَلمويّة، ومعها نزعةُ تبسيط العلوم تبسيطًا مُخلًّا؛ إذ تُعرض النظريات العلمية بل حتى المنهج العلمي عرضًا شديد الإجمال، فينشأ لدى المتلقي وهمُ اليقين حيث لا يلزم، ويُحجب عنه تفاوتُ مراتب الوثوق والتثبّت بين العلوم، بل داخل العلم الواحد، وتدخل الأصول الفلسفية وما يتفرّع عنها من نماذج ونظريات دون دراية. فتُستورد العلوم النافعة مقرونةً بحمولاتٍ فلسفيةٍ وتأويلاتٍ ميتافيزيقية شبه دينية مضمرة - أو مصرح بها - فيختلط عليه: المنهجُ التجريبيُّ المفيد، والرؤى الكونيةُ الفلسفية الغيبية المحضة التي تُنازع الوحي فيما اختصّ به من الغيب، أو تُنتج بلوازمها ما يصادم الدين، أو تُقرّر مقدماتٍ قبليةً كبرى تُهدم بها أصول الاعتقاد عند التدبر. وحين يغيب هذا التمييز، ينقلب النزاع إلى ردود فعلٍ جزئية: فإذا خالفت نظريةٌ ما معتقدًا ضروريًا عند المسلمين طُعن فيها وحدها، دون فحصٍ للأصول التي قامت عليها ووصلت بها لهذه النتيجة بعد أن فتحت الباب لأمثالها، ودون إدراكٍ لإمكان أن تكون المخالفة مطّردةً في البناء كله، لأن الفساد قد يكمن في المقدمات لا في النتائج وحدها.

من هنا يتحدد غرض هذه الدراسة: بيانُ مقدار الحمولة الميتافيزيقية والاعتقادية الفلسفية - المحقونة في بعض الرؤى المصاحبة للعلم الحديث،

وتحريرُ معيارٍ صارم يميّز بين المنهج النافع وبين التأويلات الفلسفية التي تُلبس نفسها لبوس «الحقيقة العلمية المنصرمة المتعالية عن النقد». والمقصود ليس التشغيب على العلم ولا إنكار منجزاته، بل تقويم مسلكٍ شائع في ربط الدليل بمدلوله: إذ يُعامل النجاح التجريبي كأنه إذنٌ مطلق للحديث عن غير المرصود، ثم تُقدَّم تلك الدعوى في صورة يقينٍ يُحاكم إليه النص الديني، مع أن المتلقي في واقع الأمر ينتقل من رؤيةٍ كونيةٍ إلى أخرى تقليدًا، دون استيفاء النظر في الأدلة، ودون تمييزٍ لمحل النزاع.

وعلى هذا الأساس كان اختيار كتاب Resisting Scientific Realism لمؤلفه **كينيث براد راي المفروف بـ (Brad Wray .K)**، لأنه يضع الواقعية العلمية (Scientific Realism) تحت مجهر المسائلة المنهجية بدل أن يتعامل معها كخيارٍ بديهي تفرضه نجاحات العلم. يوجه الكتاب سهام النقد على لبّ الدعوى الواقعية: القفزة الاستدلالية من نجاح النظرية عمليًا إلى الحكم بصدقها – أو قربها من الصدق – في حديثها عن الكيانات غير القابلة للمشاهدة. فيفكك براد هذه القفزة تفكيكًا منطقيًا، ثم يمتحنها تاريخيًا: هل يسمح سجلّ العلم فعلًا بهذا القدر من الثقة؟ وهل «النجاح» علامة كافية على مطابقة التصورات لما وراء الظواهر؟ وفوق ذلك لا يقتصر على نقدٍ سلبي، بل يعرض بديلًا لاواقعيًا (anti-realism) يفسّر نجاح النظريات دون افتراض الصدق الميتافيزيقي؛ فيوضح كيف يمكن لنظرياتٍ خاطئة أن تكون ناجحة تجريبيًا، ولماذا ينبغي توقّع تغيّرات نظرية جذرية مستقبلًا. فاستعمال العقل النقدي في هذه الأبواب هو من أنجع الأسلحة لتفكيك النزعةٌ العلمويةٌ الشائعة وركيزتها الأساسية ألا وهي الواقعية

العلمية أي اعتبارُ أن أفضل تفسيرٍ لنجاح النظريات عمليّا هو صدقُها – أو قربُها من الصدق – في حديثها عن غير المرصود (الغيبي). ويُطرح بدلًا من ذلك تفسيرٌ أدقُّ في نتائجه: ما يبقى غالبًا هو «الناجح نسبيًا»، لأن غيرَ الناجح جرى استبعاده عبر تاريخٍ طويلٍ من الغربلة العلمية؛ وهذه الغربلة تفسّر ملازمة النجاح للنظريات الرائجة، من غير أن يلزم من ذلك أن بقاءها علامةُ مطابقةٍ للحقيقة.

وتزداد قيمة الكتاب من جهة مؤلفه؛ إذ إن **كينيث براد راي** متخصص فعليًا في هذا المبحث من فلسفة العلم: اهتماماته تدور حول فلسفة توماس كون (Thomas Kuhn)، وتغيّر النظرية العلمية (Change Scientific Theory)، وجدال الواقعية/اللاواقعية، إضافةً إلى قياسات العلم (Scientometrics) وممارسات النشر العلمي. ولذلك يأتي الكتاب جامعًا بين الوصف والمعيار: لا يكتفي بالتأمل المنهجي المجرد، ولا يذوب في سردٍ تاريخي بلا نتيجة، بل يوازن بينهما ليجعل كل دعوى واقعية مطالبةً ببرهانها، وكل اعتراض لاواقعي مطالبًا بتفسيرٍ بديلٍ معقول لمسار العلم ونجاحه. وقد انعكس هذا الوزن في الثناء الأكاديمي؛ إذ مدحه **باس فان فراسن (Bas van Fraassen)** بوصفه نقدًا ثاقبًا تخرج منه لاواقعيةٌ أصلب مقرونة بتواضع إبستمولوجي، وأشادت به مجلات ومراجعات معتبرة بوصفه عملًا واضحًا محكم الحجاج جديرًا بأن يُلزم الواقعيين بالرد، واعتبرته مراجعات أخرى قراءةً أساسيةً لمتابعي مناظرة الواقعية العلمية في صورتها المعاصرة، كما نوقش من زوايا متعددة عبر مراجعين بارزين مثل **ستيفن فرنش (Steven French)** و**بيتر فيكرز (ter VickersPe)** و**ستاثيس بسيلاس (Stathis Psillos)** و**ب. كايل ستانفورد (Kyle Stanford .P)**، وانتهت

خلاصة النقاش إلى أن الكتاب إضافةٌ مرحّب بها لمن يشتغل بعلاقة العلم بالحقيقة وبحدود ما يبيحه نجاح العلم من التزامات ميتافيزيقية.

وأما منهج هذه الدراسة فيقوم على أربعة مسارات مترابطة:

تمهيدٍ تاريخي يرسّخ الخلفية اللازمة لتشكّل العلم وتحول نظرياته بما يعين على إدراك حدود الحجج وإمكاناتها على ضوء أمثلة واقعية؛ ثم تحرير الدعوى وبناء الحجة بعرض حجج الواقعية العلمية واللاواقعية عرضًا ميسّرًا مع تفكيك بنيتها المنطقية وتمحيص دلالاتها؛ ثم المناقشة والترجيح باستقصاء دفاعات الفريقين ومناقشتها وتفنيد الباطل منها وقبول الحق من الطرفين، وترجيح ما ينهض به الدليل ويسلم من التناقض والدور؛ ثم تحرير الصواب وما يجب على المسلم اعتقاده في مصادر التلقي والاستدلال النظري والحسي التجريبي وما ينبني على ذلك من مواقف تفصيلية تجاه قضايا كثيرة تناولناها في الكتاب تتقاطع مع تقريرات أهل السنة والجماعة في كتبهم العقدية المطولة وعلى رأسها كتب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. هذا، والحمد لله أولًا وآخرًا.

٢٠٢٥ / ٢ / ١٧

الموافق ١٨ / ٨ / ١٤٤٦ هـ

الفهرس

ضد الواقعية العلمية دراسة نقديّة لأشهر حجج العَلمويّة وركيزتها: الواقعيّة العلميّة ٥

تصدير ٧

مقدمة ١١

١| كوبرنيكوس: حين تغيّر مركز الكون! ١٧

الفلك البابلي: الأداتية القصوى..... ١٧

الفلك اليوناني القديم: طريقان لفهم السماء..... ١٨

الفلك من العصور الوسطى إلى النهضة: استمرارات وتحولات ٢٥

نماذج السماء: كيف يمكن لنظريتين أن تتشابها في النتائج؟ ٢٧

كوبرنيكوس والتحوّل الكوني الكبير ٢٨

أندرياس أوسياندير: قراءة أداتية مبكرة لكوبرنيكوس ٣٤

إيراسموس رينهولد ومدرسة فيتنبرغ: نشر النموذج وترويضه ٣٩

تايكو براهي: الرصد يضغط على النماذج..... ٤١

كيبلر وغاليليو: من الحساب إلى الهيئة الجديدة..... ٤٥

٢| تكافؤ الأدلة بين النظريات: حين لا تحسم التجربة وحدها ٥٦

مقدمة ٥٦

بيير دوهم: منطق تكافؤ الأدلة..... ٦٠
كواين: تكافؤ الأدلة واتساع البدائل..... ٦٩
الشمولية المعنوية: المعنى شبكةٌ لا أجزاء ٧١
الشمولية المعنوية ومأزق المعنى التاريخي للمصطلحات..... ٧٢
التكافؤ الجذري: نظريات متكافئة تجريبيًا ٧٤
تكافؤ مؤقّت: أدلة اليوم ليست كلمة الفصل..... ٧٩
من الحلول التي تُقترح لمشكلة تكافؤ الأدلة الحسية ٨١
تكافؤ الأدلة في الجدل المعاصر: الواقعية واللاواقعية ٨٦
اتّفاق المعايرة: محاولة واقعية للدفاع عن التاريخ الطبيعي ٨٨
خلاصة مسألة التكافؤ الدلالي..... ٩٥
٣| فقر البدائل المتصوَّرة: المشكلة التي تُربك «أفضل تفسير» ٩٧
مقدمة .....ـ..... ٩٧
حجّة فقر النظريات المتصوَّرة: واعتراضات بيتر ليبتون ١٠٠
اللاواقعية والموثوقية التقييمية.....١٠٧
التناقض المزعوم ومقدمة "عدم الامتياز المعرفي" ١١٠
التقييم المقارن: نسبيّ أم مطلق؟.....١١٢
ريتشارد بويْد: دفاع الواقعيين عن موقفهم.....١١٥

٤| الامتياز المعرفي: لماذا يعتقد الواقعي أنه في موقعٍ تاريخي أفضل؟ ١١٨

دعاية واقعية متفائلة..... ١١٨

قضية الامتياز المعرفي..... ١١٩

حالة الامتياز المعرفي ١٢٠

حجة عدم الامتياز المعرفي..... ١٢٧

٥| أربع صيغ للاستقراء المتشائم: تاريخ العلم ماذا يقول لنا؟ ١٣٣

الاستقراء المافوق-متشائم Induction-Pessimistic Meta عند

هيلاري بوتنام..... ١٣٥

الاستقراء المتشائم ببرهان الخلف..... ١٤٥

الواقعية والاستقراء المتشائم..... ١٥٠

لماذا لا يزعزع تاريخ العلم الواقعية العلمية؟..... ١٥٨

الاستقراء المتشائم الجديد لستانفورد..... ١٦١

٦| التشاؤم والتفاؤل: هل صعود العلم يغيّر النتيجة؟ ١٦٩

النمو الأسي العلم..... ١٧٢

تقييم احتجاج الواقعيين بحجة النمو الأسي..... ١٨٠

احتجاج مايكل ديفيت: «تقدّم المنهجية» كجواب..... ١٨٦

٧| متى نقول إن النظرية تغيّرت جذريًا؟ ١٩٣

ما الذي يُعد تغييرًا في النظرية..... ١٩٤
الثورات الكونيّة Kuhnian Revolutions..... ٢٠٣
الكيمياء على أعتاب القرن العشرين..... ٢١١
ثورة الكيمياء في أوائل القرن العشرين..... ٢١٨
٨| هل المزايا النظرية تدعم الواقعية العلمية حقًا؟ ٢٣١
المزايا النظرية ٢٣٣
الفهم الخاطئ للانتقادات التي قدمها لودان..... ٢٤٠
المزايا النظرية والترتيب التفاضلي..... ٢٤٨
الواقعية، العقلانية، ومشكلة اختيار النظرية..... ٢٥٣
التفسير الاسترشادي للعقلانية: لماذا لا يكفي؟..... ٢٥٥
٩| لكن هل يمكن للاواقعية تفسير نجاح العلم؟ ٢٦٠
حجة "عدم المعجزات"..... ٢٦١
تقييم فان فراسن لتفسير الواقعيين..... ٢٦٩
النقاط الرئيسية لقوة شرح فان فراسن..... ٢٧٣
تنبؤات بالظواهر الجديدة..... ٢٨٧
١٠| الانتقاء والنجاح التنبؤي: ما الذي ينجو من النظرية؟ ٢٩٢
الانتقاء والنجاح في العلم ٢٩٣

الانتقادات الموجهة ٢٩٧

الدفاع عن التفسير الانتقائي..... ٣٠٢

هل التفسير الانتقائي والتفسير الواقعي متوافقان حقًا؟ ٣١٤

١١| كيف يمكن للنظريات الخاطئة أن تقدم تنبؤات صحيحة؟ ٣٢٤

لماذا كانت نظرية بطليموس ناجحة؟ ٣٢٧

نجاح نظرية كيميائية خاطئة..... ٣٣٧

خلاصة تفسيرية: لماذا تُنتج النظريات الخاطئة تنبؤات صحيحة؟ ٣٣٩

تنبيه حاسم: هذا ليس تسليمًا بالواقعية الانتقائية..... ٣٤٠

الأكاذيب الصادقة في العلم التجريبي..... ٣٤٢

١٢| لماذا تُرفَض النظريات؟ ما الذي يُسقطها فعلًا؟ ٣٤٩

دور التغيرات في الاهتمامات..... ٣٤٩

لماذا تفشل النظريات؟..... ٣٥٢

الحقيقة والاهتمامات..... ٣٧٥

البدائل غير المُتصوّرة والاهتمامات..... ٣٨١

١٣| تحرير المذهب في فلسفة العلم ٣٨٦

العقل ومراتبه: ٣٨٧

اللغة وعلاقتها بالتفكير ٣٩٢

الأدوار الرئيسية للغة في العلم..... ٣٩٧
قياس الغائب على الشاهد..... ٤٠١
السببية بين المعرفة والوجود..... ٤٠٣
الحس ومراتبه..... ٤٠٧
محاولة لإلزامنا بالتناقض من مذهبنا في التزام حدود الحس..... ٤١٠
المشاهدة المشبعة بالتنظير Ladenness of Observation-Theory.. ٤١٣
العادة الحسية وأفضل تفسير..... ٤١٩
النماذج التفسيرية وتفسير الظواهر..... ٤٢٤
المزايا النظرية..... ٤٣١
فلسفة الرياضيات وعلاقتها بالنماذج التفسيرية..... ٤٣٥
لماذا تنجح محاكاة الواقع بالنموذج التفسيري مع أنه ليس مطابقًا للواقع؟..... ٤٤٤
١٤| الخاتمة ٤٤٨
المراجع ٤٥٧
الفهرس ٤٩٥